اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح٢١ | الآيات [١٢٩ : ١٣٩]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

كنا قد توقفنا عند قول الله -عز وجل-: {وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [سورة الأنعام: ١٢٩]، وذكرنا في المرة السابقة {وكذلك} أي؛ كما أن الجن تولوا الإنس وأضلوهم فكذلك يولي الله -عز وجل- الظالمين بعضهم بعضًا. وأوضحنا اختلاف العلماء في معنى { وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا } (سورة الأنعام: ١٢٩) وما معنى أن بعض الظالمين يتولى بعض الظالمين؟ فقال بعضهم: -وهذا كان اختيار **الطبري**- أي بمعنى: "الطيور على أشكالها تقع"، فيلتقي الظالمون ببعضهم البعض لأن هناك قوة تجمعهم وخاصة الصفات النفسية، فتجد الأنذال سويا، والجبناء سويا، كما لو أن هذه الصفات النفسية مغناطيس يجذبهم إلى بعض. وكذلك تُحشر هذه المجموعات زمرًا.

و { نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا } أي أن الولاية هنا ولاية مؤاخاة في الضلال، فهم يتآخون في الظلم والضلال ويتولون بعضهم البعض، وكما قلنا؛ فتجد القتلة مع بعض، والعصاة وأصحاب الشهوات مع بعض ويتولون بعضهم البعض. ومن سنن الله -سبحانه وتعالى- أنهم يجتمعون وتظل هذه السُنَّة تكتمل إلى أن يجعل الله -عز وجل- الخبيث بعضه على بعض، وحتى لو أن قوة هذا المغناطيس النفسي -الذي يجذب الظلمة لبعض- لم تكن كافية لجذب بعض الناس؛ فتحدث ابتلاءات تُفرِّق الخبيث عن صف الأتقياء، ويذهب إلى الخبثاء أمثاله ويظل هذا يحدث إلى أن يتم التمايز الكامل، وبمجرد حدوث التمايز الكامل ويبتعد أهل الخبث والضلال عن أهل الإيمان؛ عندئذ يقع العذاب على أهل الخبث.

إذًا؛ هذه الابتلاءات تحدث للتصفية. ومن سنن الله -عز وجل- أن هذا يحدث تلقائيًا-باجتماع الظالمين ويحدث بالابتلاء. فيحدث تلقائيًا لأنهم يحبون بعضهم البعض ويتعاونون على الظلم فيجتمعون مع بعضهم البعض، وكذلك أيضا يحدث بالابتلاء... لأن هناك منافقين مختبئين في صفوف أهل الإيمان فتحدث الابتلاءات ليقع هؤلاء المنافقين، فالله يجعل الخبيث بعضه على بعض إلى أن يجتمعوا وبعد ذلك

{فَيَرْكُمَهُ}، وبعد أن يركمه يجعله جميعًا في جهنم {وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ} (الأنفال: ٣٧).

{مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ...} يميز؛ أي يفصل، كما في { تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ } (الملك: ٨)، تميز؛ أي تتقطع وتنفصل، {مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ} (آل عمران: ١٧٩)

فالخبيث سيظل يتولى بعضه البعض. وهذا كان اختيار الإمام الطبري أن التولي هنا بمعنى التلاقي والتآخي في الظلم.

أما **الإمام ابن كثير** ذهب إلى أن { نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا } (الأنعام: ١٢٩) التولي بمعنى التسليط، أي إن الله –عز وجل– يُسلط ظالمًا على ظالم آخر، يأتي إنسان ظالم فربنا يأتيه بظالم ثانٍ فينتقم من الظالم بظالم فيُهلكا بعضًا وتفنى قواهم، وهذا يكون سبيلًا لظهور المؤمنين.

وقلنا –كمثال دولي عملي– كان من أسباب الإعداد لتهيئة نشأة الدولة الإسلامية؛ الصراع الذي كان بين الفرس والروم {غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ} (سورة الروم ٢،٣)

فالله –عز وجل– سلَّط ظالمًا على ظالم وانتقما من بعضهم البعض. ومن يتولى ظالمًا يُسلَط عليه، وهناك آثار في هذا الموضوع ذكرنا قسطًا منها في المجلس السابق.

{ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (الأنعام: ١٢٩)، فهم يجتمعون على كسبهم –هذا على رأي الإمام الطبري–، فكسبهم هو الذي يجمعهم، صفتهم هي التي تجمعهم. وعلى رأي ابن كثير أن كسبهم هو أعمالهم، وبسبب أعمالهم يُسلط عليهم ظالم، فأحيانًا يُسلط على الناس ظالم بسبب ظلمهم وبعد أن ينتقم هذا الظالم منهم فيُسلَط عليه ظالم آخر {بما كانوا يكسبون}.

ثم يقول الله –عز وجل–: {يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ} (الأنعام: ١٣٠)

سنلاحظ تكرار ذكر الإنس والجن في السورة بالرغم من أن الحديث كان على الإنس طوال السورة. فبدأ هنا إدخال ذكر الجن، جاءت أكثر من مرة، سواء أنهم يوحون زخرف القول أو يوحون شبهات، والله –

عز وجل- قال: {وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ} (الأنعام: ١٢١)، فربنا ذكر جُهد الجن في الدنيا لإضلال الإنس، وكذلك تكلم الله -عز وجل- عن يوم القيامة: {يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ} (الأنعام: ١٣٠)

{يقصون عليكم آياتي} فالدور الرئيسي للرسل أنهم يقصون على الناس آيات الله -عز وجل-؛ لا أن يفتعلوا آيات على حسب طلب الذي أمامهم!...والمشركون طوال السورة يطلبون آيات ويريدون معجزات حسية، ويريدون أن يصعدوا إلى السماء، ويريدون شيئًا ينزل من السماء، ويريدون آيات غير القرآن، لا يعجبهم القرآن، لكن الرسول ما هو إلا مُبَلِّغ، والرسول سُمي رسولًا لأنه جاء برسالة، فلو تخلى عن الرسالة المبعوث بها إذًا هو تخلى عن صفته الأساسية. وكمثال، ذكرنا خيانة موظف البريد المبعوث برسالة لأهل بيت ما... أخذ الرسالة ليوصلها، فمن الخيانة أن يفتح الرسالة ويُغيرها حتى لو ظن أنه يفعل ذلك رحمةً بهم.

فمثلًا جاءت رسالة إلى أهل بيت ما بأن ابنهم قد مات، فموظف البريد ذهب لإرسال الرسالة فخطر على باله أن يقرأ هذه الرسالة قبل طرق الباب، وعندما فتح الرسالة وجد فيها أن ابنهم مات، فقال في نفسه: ما هذا؟ هل يصح أن نُحزِن الناس ونكون سببًا في بكائهم؟! لا يصح! فمحى الكلمة وكتب: ابنكم نجح! هو معتقد أنه يُرضي الناس ويفرحهم ويقول : هل أنا مخطئ؟! نعم؛ أنت مخطئ، أنت خائن!

هذا ما يفعله بعض الدعاة في التغطية على آيات النار أو على آيات الجهاد أو آيات القتال ثم يأتي ويقول: نحن لا نريد أن نُحزن الناس ولا أن نُضايقهم! لا؛ أنت هكذا خائن لا تُوصل الرسالة كاملة للناس.

{أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا} (الأنعام: ١٣٠) إلقاء التُهم والهروب

{وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ} (الأنعام: ١٣٠) بعض المفسرين قال: ورد تكرار الشهادة لأن الذي شهد عليهم في المرة الأولى هي جوارحهم، فلما شهدت جوارحهم عليهم تكلموا هم بأنفسهم وأقروا بكفرهم {وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ} (الأنعام: ١٣٠)

{ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنيا} (الأنعام: ١٣٠)

وللإمام الطبري لفتة رائعة هنا وهي قاعدة هامة في التفسير، فقال جملة تدل على عمق فهم هذا الإمام واستحقاقه لقب "شيخ المفسرين"، قال عمن المقصود في {**وغرتهم**}؟

(هم) تعود على" العادلين بالله –عز وجل– الأوثانَ وأولياءَهم من الجن"، العادلين بالله الأوثانَ جاء ذكرهم في أول آية في السورة {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} (الأنعام: ١) فهو يربط الموضوع من أول السورة، وأضاف عليهم هنا "أولياءَهم من الجن" التي بدأت تُضاف في الجزء الأخير من السورة...إذا هم :تعود على العادلين بالله الأوثان الذين ورد ذكرهم من أول السورة ويضاف لهم أوليائهم من الجن.

وما هي {**الحياة الدنيا**}؟ الإمام الطبري له فقه في تأويل بعض الآيات أن اللفظ المجمل مثل كلمة "التقوى"، كلمة "الفساد"، كلمة "الإصلاح" هذه ألفاظ مجملة، يقول: –حاصل كلامه– إن السياق يخصص هذا اللفظ، ما معنى ذلك؟ أي مثلًا: {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ} (الحجرات: من الآية ١٠) فهنا التقوى لها معنى مخصوص؛ وهو أن تتقي الله في أخيك وليس المقصود المعنى العام، وكذلك في لفظ الإصلاح أو في لفظ الفساد.

{غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} (الأنعام: من الآية: ١٣٠) ما هو تحديدًا الذي غرهم في الدنيا؟

يقول الإمام الطبري: "وغرهم حب الرئاسة".. فحذف كلمة الحياة الدنيا ووضع حب الرئاسة؛ لأن الحياة الدنيا كلمة عامة وتشمل الأموال والشهوات وغيرهم، ولكن لماذا حددها بـ "حب الرئاسة"؟ نجد أنه استنبطها مما هو قبلها ومما بعدها.. مما قبلها حينما قالوا: {لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ} (الأنعام: ١٢٤) الكبر الذي بداخلهم الذي جعلهم يرفضون الإيمان؛ لذلك كان عقابهم: {سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ } (الأنعام: ١٢٤) و{صغار} هو عكس الكبر.

وما بعدها لما قالوا –وسنأتي لها– {وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ} (الأنعام: ١٣٨)، فيقولون: نحن مَنْ نملك وليس الله، نحن مَنْ نملك التوزيع الاقتصادي، نحن مَنْ يحدد ما هو الحلال في الأموال وما هو الحرام وليس الله الذي يقول لنا! لذلك تعجّبوا {أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟} (هود: ٨٧) أنت تريد أن تمنعنا من أن نفعل في أموالنا ما

نريد! هذا مستحيل! إلا أموالنا! فحب التصرف وحب الكبر وحب السيطرة وحب الرئاسة هذا الذي غرهم، ولهذا خصص الإمام الطبري هذا المعنى وقال **بأن الذي أضل أغلب الإنس والجن هو حب الرئاسة ومنازعة الله –عز وجل– في الربوبية والألوهية.**

{وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } (الأنعام: ١٣٠)

{ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} (الأنعام: ١٣١)

ما معنى {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} (الأنعام: ١٣١)؟ عندما ذكر الله –عز وجل– هذا المصير الأخروي وأنهم {وشهدوا على أنفسهم} (الأنعام: ١٣٠) فأصبح لا يوجد مناص ولا مفر، فيقول الله إن ما وقع عليهم لم يحدث فجأة، بل أرسل الله إليهم رسلًا وأرسل لهم آياتٍ وكان الأمر واضحًا، وأتتهم الآية تلو الآية لكنهم أصروا {لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} (الأنعام: ١٣١) أي بشرك، أي: لم يكن ربك مهلك القرى بشرك منهم وأهلها غافلون، بمعنى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولا) (الإسراء: ١٥)، أي أن الله –عز وجل– لن يهلك قرية على حين غفلة إلا بعد أن يبين لها ويوضح لها ويرسل لها ثم تجحد فينزل العذاب.

وقيل {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} (الأنعام: ١٣١) أي بظلمٍ منه لهم.

إذًا؛ إما بظلم منهم له؛ وهو الشرك. أو بظلمٍ من الله –عز وجل– لهم.

فإذا كان معنى كلمة {بظلم} أي بشركٍ؛ فمن هنا سيكون الظالم؟ هم ظلموا بالشرك

{ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} (الأنعام: ١٣١) فإذا هم أشركوا ولم يأتِ لهم رسول فلن يعذبهم الله، وإذا بعث لهم رسولًا ويبين لهم الحق ثم أعرضوا فيهلكهم الله –عز وجل–.. كما قال سيدنا صالح لقومه {لا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } (هود: ٦٤) فماذا فعلوا؟ عقروها! يقول لهم {لا تمسوها} فلم يمسوها فقط بل عقروها! فالآية واضحة والجريمة واضحة وبالتالي استحقوا العقاب، ولم ينزل الإهلاك وهم غافلون، بل قال لهم ثلاثة أيام وسينزل العذاب { وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ }(هود: ٦٥).

{فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} (هود: ٦٥).

أو القول الثاني : {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ} (الأنعام: ١٣١) أي أن الله –عز وجل– لا يظلم أحدًا، وهنا نفي الظلم عن الله، –وإن كان الطبري رجح الرأي الأول أن {بظلم} تعني بشرك– أن الله لا يظلم أحدًا، ومصداق هذه الآية {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥)...هذا بالنسبة للأمة.

بالنسبة للعبد؛ فعندما يأتي أحد ويقول فلان فعل كذا لأول مرة ومات على معصية ويتعجب، يقول أول مرة يفعل المعصية وكانت له سوء خاتمة، تقول له أبدًا هل تريدني أن أتهم الله!! أنت تحكي القصة كأنك تريد أن تتهم الله!، أبدًا حاشاه سبحانه وتعالى، الله –عز وجل– أعلم بعباده وأرسل له وبين له ووضح له لكنه هو الذي أصر، فعدم معرفتك بالرسل التي أُرسلَت لفلان والإنذارات التي أرسلت له هذا ليس معناه أن تسيء الظن بالله!

تتعجب فلان مثلًا انتكس، إياك أن تسيئ الظن بالله أبدًا،{ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} (الأنبياء: ٨٧)، الله يرسل ويبين ويوضح لكن الإنسان هو الذي للأسف يصر على الضلال.

فيقول الله بعدها {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: ١٣٢)، بعضهم قال لماذا جاءت هذه الآية {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا} بعد آية الإهلاك؟

التقط **ابن عاشور** معنى جميل فقال: عندما سمع أهل الإيمان الذين يعيشون في مكة هذه الآية {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} (الأنعام: ١٣١) خافوا أن يُخسف بمكة، بينما هم مستضعفون ولا يستطيعون فعل شيء، فيقول الله لهم: اطمئنوا درجاتكم محفوظة في الجنة، أي: حتى لو أُهلكتم معهم درجاتكم في الجنة محفوظة، إذًا {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: ١٣٢) بعضهم قال أن هذه طمأنة لأهل الإيمان المستضعفين الذين يعيشون مع المشركين ولا يستطيعون أن يهاجروا، أي أنه حتى لو نزل عذاب عام اطمئنوا إن درجات إيمانكم محفوظة.

وبعضهم قال إن {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا} (الأنعام: ١٣٢) أي من الجن والإنس، أي أن الناس لن يُعاقبوا بالمجموع هكذا، لا أبدًا، لا بل كل أحد له عقاب أو ثواب معين ومحدد سواء درجات أو دركات {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: ١٣٢)، كل طاعة لها ثواب محدد وكل معصية لها عقاب محدد، فكل إنسان سيُحاسب حسابًا دقيقًا جدًا جدًا {وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ

مَعْلُومٌ} (الصافات: ١٦٤)، كما أن ذلك في الدنيا كذلك في الآخرة، كل إنسان له درجة معينة لن يتخطاها ولن يتعداها على حسب عمله وتفضُّل الله -عز وجل- عليه.

{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: ١٣٢)، الأعمال التي في السر لأهل الباطل والأعمال التي في السر لأهل الإيمان يعلمها الله، إذا كان هناك شخص مستضعف مؤمن واحد فقط وسط دولة كلها كافرة الله يعلمه... شخص منافق واحد وسط دولة كلها إسلامية الله يعمله، الموضوع لن يسير جزافا فيدخل كل هؤلاء الجنة أو كل هؤلاء النار...لا بل هناك دقة في الحساب، كما قال تعالى {ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا} (مريم: ٦٩)

أي أن النار عندما ترتفع لتلتقط تبدأ بالعتاة أولًا، تدرك مَن ستأخذ، يصعد لسان النار وهو يعرف مَن سيختار بالضبط. الكلاليب التي على الصراط وهي تلتقط تعرف مَن ستأخذ بالضبط -نعوذ بالله من ذلك-، فالأمر ليس فيه صدفة، أو أن تدخل الجماعة كلها، أو يمر مئة على الصراط فيقع بهم جميعًا في النار، الموضوع ليس هكذا، ولا الذي يدخل ليُوزَن فيدخل الذي يليه بسرعة -نحن لسنا في الجمارك أو في المطار- بل الموضوع بدقة عالية جدًا جدًا.

{وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام: ١٣٢) وهذه طمأنة للنبي صلى الله عليه وسلم، يقول الله -عز وجل- للنبي -صلى الله عليه وسلم-: اطمئن، ربك الذي يربيك بنعمه يعلم خطط الإنس والجن؛ لأن الإنس والجن تكالبوا هنا على أهل الإيمان ووضعوا أيديهم في أيدي بعض، وتكاتفوا وبدأوا يوحون لبعض ويأخذون الأفكار من بعض {زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} (الأنعام: ١١٢)، فالله يطمئن النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى لو اجتمع أهل الأرض جميعًا على أن يهلكوا هذا الدين لن يستطيعوا {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ} (يوسف: ٢١)، {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (الصف: ٨)، هذا أمر قطعي مهما اجتمع أهل الأرض جميعًا على ذلك لن يستطيعوا، أنت تقول بعد الأذان ((اللهم رب هذه الدعوة التامة)) هي تامة ومستمرة في التمام إلى يوم القيامة.

إذًا عندما تسمع آية الإهلاك {ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ} (الأنعام: ١٣١) ثم يقول الله أن لكل أحد عقاب معين مخصوص له، ولكل أحد ثواب معين مخصوص له، ثم ترى إجرام أهل الباطل فتستعجل العذاب وتقول: متى ينزل بهم عذاب يا رب فيخلصنا منهم جميعًا؟! فربك يقول لك {وَرَبُّكَ

الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} (الأنعام: ١٣٣) الله يتركهم رحمة منه لعلّهم يتوبون، لعلّ الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله عز وجل.

- **الغني_سبحانه_**

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} (الأنعام: ١٣٣) إذًا؛ يقول الله –عز وجل– لمن يستعجل الإهلاك: أنا قادر على ذلك {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ} (محمد: ٤)، فالله –عز وجل– غني عن عبادة أهل الإيمان، وغني عن أموال أهل الباطل والأسباب التي معهم والزينة التي معهم، الله –عز وجل– غني سبحانه وتعالى، ولا يستحق اسم الغني حقيقة مطلقًا إلا الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان عندما يصبح غنيًا يكون غنيًا بشيء، لأن "استغنى" أي في غنى عنه. فمن معاني الغنى أن معك أسبابًا تحافظ عليك وتمنعك من أشياء أخرى، {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا} (هود: ٩٥) كأنهم لم يكونوا ماكثين فيها آمنين.. فالإنسان حتى يكون غنيًا يمتنع من الأشياء التي تضره أو يكون معه أشياء تفيده، وبالتالي يلزمه أسباب، وأشهر سبب من الأسباب التي تساعد الإنسان على ذلك هو المال، فأُطلق الغنى على المال، فالذي معه مال يسافر به، معه مال يشتري به ما يريد، معه مال للعلاج، فأصبح مَن معه الأسباب هو الغني.

الإنسان لا يكون غنيًا إلا بسبب، وحده الله –عز وجل– هو الغني بذاته –سبحانه وتعالى– لا يحتاج إلى شيء، الله –عز وجل– غني بذاته سبحانه وتعالى... وذكرنا نفس هذا المعنى أيضًا في الملك؛ أن المِلك في الدنيا يحتاج إلى جنود ويحتاج إلى مملكة حتى يصير ملكًا، فلو أن الجنود والشعب قاموا بعمل ثورة وانقلبوا عليه فلن يعود اسمه مَلِكًا، إذًا هو كان ملكًا بهم، فلما انقلبوا عليه لم يعد ملكًا، فإن تركوه وذهبوا لم يعد ملكًا، وإن فقد الأرض لم يعد ملكًا، لكن الله –عز وجل– هو الملك –سبحانه وتعالى– لا يحتاج لشيء سبحانه وتعالى.

لذلك عندما تأتِ اللحظة التي يفنى فيها كل شيء، لا تجد مخلوقاتٍ ولا أرضًا ولا أي شيء، كل شيء يفنيه الله –عز وجل– ويقول: لمن الملك اليوم، لله–سبحانه وتعالى–. الله لا يحتاج إلى أي شيء سبحانه

وتعالى، فعندما يفنى كل شيء، ويبقى المِلك الغني عن كل شيء سبحانه وتعالى، كل شيء مفتقر إليه، حتى الملائكة {إِذ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُم فَثَبِّتُوا} (الأنفال: ١٢)

أي أن جنود الله في حاجة إليه -سبحانه- أن يكون معهم حتى يقوموا بالأعمال الموكلة إليهم، فتأتي اللحظة التي يُميت اللهُ -عز وجل- فيها كل الملائكة وكل الخلق، هذه اللحظة يظهر المِلك جليًا واضحًا والغِنى جليًا واضحًا، فهو وحده الغَني بذاته -سبحانه وتعالى-.

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} (الأنعام: ١٣٣) أي أنه كان هناك قوم وكانت لهم ذرية وأحفاد وأنتم أتيتم من نسل هؤلاء الأحفاد، ومنذ عهد سيدنا نوح والإهلاك مستمر، فكما حدث هذا معهم من الممكن أن يحدث معكم، ولم يقل -سبحانه-: "كما أنشأكم من قوم آخرين" بل قال: {كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ} (الأنعام: ١٣٣) وذلك لتباعد الأجيال التي ماتت وكثرتها، فقد كان هناك قوم نوح وأهلكوا، وقوم هود وأهلكوا...إلخ، فالأمر مستمر وكما حدث هذا مع الأجيال السابقة من الممكن أن يحدث معكم ومع احفادكم .. و من الممكن أن تهلكوا كما هلك من قبلكم ثم يخرج من أحفادكم قوم يصطفيهم الله وكأن بها إشارة إلى أن الله لا يَعجل بعجلة أحد، أي ليس بعد إهلاككم مباشرة سيأتي جيل يطبق أحكام الله، بل من ذرية أحفادكم سيخرج أناس يصطفيهم الله ليطبقوا أحكامه وشرعه.

{إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ} (الأنعام: ١٣٤) هناك توافق في السياق عندما ذكر -سبحانه- العذاب الأخروي ثم ذكر العذاب الدنيوي عندما قال: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} (الأنعام: ١٣٠) العذاب الأخروي... ثم قال: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى} (الأنعام: ١٣١) هذا هو الإهلاك الدنيوي.

وعندما تكلم الله عن الإهلاك الدنيوي وهذه نقطة مهمة جدًا أن كثيرًا من الناس عندما يسمع عن قضية الإهلاك الدنيوي من الممكن أن يسيء الظن بالله فيتساءل إذًا لماذا لا يحدث هذا؟ فدائمًا قضية الإهلاك الدنيوي تحتاج إلى تفصيل فجاءت الآيات بعدها بمثابة التوضيح.

فالله غني، فعال لما يريد، وأن هذا حادث لا محالة {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ}!... والقاعدة الثابتة {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} (الأنعام: ١٣٤) عاجز الذي يظن أنه يُعجز الله، عاجز الذي يظن أن الله -عز وجل- لن يقدر عليه، {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا} (العنكبوت: ٤) هذا الذي يظن أنه

يفلت من عذاب الله –عز وجل–، الذي يظن أنه يُعجز الله، الذي يعتقد أنه يفلت بمعصيته دون حساب، الذي يظن ذلك لا يفقه شيئًا.

من الممكن أن يهرب إنسان من إنسان آخر أو أن يهرب من القانون؛ أن يتلاعب بالبصمات أو يلغي اتهامه فمن الممكن أن يفلت من العقاب ، لكن عند الله –عز وجل– لن يستطيع أحد أن يفلت، فما من أحد يُعجز الله –عز وجل–، لذلك من المعاني الجميلة جدًا في قول الله –عز وجل–: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ والله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله} (آل عمران من ١٣٣:١٣٥) من معاني {ومن يغفر الذنوب إلا الله}؛ (المِغْفَر) هو الشيء الذي كانوا يرتدونه فيحميهم من ضربات السيوف في المعركة، فلو أصاب سيف رأسك في المعركة لقسمه نصفين ولكنك ترتدي المغفر فيقوم هذا المغفر بمنعه. وهنا؛ ما هو السيف الذي ينزل على الرأس؟ هو الذنوب، فالله يقول لك أنه لن يمنع أثر ذنوبك عنك إلا الله، ما من قوة في العالم تستطيع أن تمنع أثر ذنوبك عنك إلا الله، { وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله } (آل عمران: ١٣٥) من يقدر أن يمنع أثر ذنوبك عنك إلا الله؟ فالأثر من الممكن أن يصيبك نفسيًا داخليًا {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} (الحشر:٢) من يمنع عنك الرعب؟ من يقدر أن يمنع عنك الخوف؟ {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ} (الحشر:٢) من الذي يقدر أن يمنع عنك؟ فلو ذهبت إلى أعتى قوة في العالم وقلت لهم: لقد ارتكبت معاصيَ كثيرةً أجيروني من عذاب الله، لا يقدر أحد أن يمنع عنك هذا أبدًا، الله –عز وجل– يملك الأرض والسماء والهواء والدم الذي في العروق والنَفَسَ الذي يدخل صدرك، الله –عز وجل– يملك كل شيء.

لذلك القصة المشهورة للشخص الذي كان يعتقد أنه وصل لقدرة كبيرة من الصبر على البلاء، كان يقول: وليس لي فيما سواك حظ؛ فكيفما شئت فابتليني! كان يقول هذا لله، يقول: يا رب أنا لا أحب أحدًا غيرك فابتليني كما تريد، فابتلاه الله بعسر البول، فكان يطوف على أطفال القرية ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب!

فانظر كيف أن شيئًا بسيطًا جدًا قد يصيبك، من الممكن أن يقلب حياتك رأسًا على عقب، لذلك الله -عز وجل- يقول لهم: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} (الأنعام: ١٣٤).

{قُلْ يَا قَوْمِ} (الأنعام: ١٣٥) عندما اجتمعت الإنس والجن وصار الأمر في أشده، وقد قلنا عندما بدأ الموضوع يشتد بداية من قول الله -عز وجل-: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} (الأنعام: ١٢٢)، عندما بدأ الإصرار أن يسيروا بنور القرآن بين الناس، مَن الذي بدأ يظهر هنا؟ ظهر أكابر المجرمين، لفظة أول مرة تظهر في السورة، بعد آية: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(الأنعام: ١٢٢) الآية التي تليها مباشرة: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا} (الأنعام: ١٢٣) عندما جاء ذكر أكابر المجرمين واجتماع الجن والإنس وإيحاء بعضهم إلى بعض، كل هذا التكالب يحتاج إلى ثبات أعلى.

إذًا كلما اشتد ثبات أهل الباطل لا بد أن يشتد ثبات أهل الإيمان، لذلك عندما أقسموا في الآية التي في آخر سورة إبراهيم: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} (ابراهيم: ٤٤) أقسموا أن ما لهم من زوال من شدة يقينهم في ثباتهم على الباطل فقالوا: والله ما لنا من زوال، فلا بد عندما يقسم هؤلاء هكذا أن تقسم أنت وتقول: والله ليُتِمَنَّ الله هذا الأمر! إذًا كلما ازداد هو ثباتًا في الباطل لا بد أن تزداد أنت ثباتًا في الحق، إن أقسم وقال: ما لنا من زوال، ترد أنت وتقول: والله لكم زوال.

فهنا عندما اشتد النقاش واجتمعوا مع بعضهم، ماذا قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم؟ {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ} (الأنعام: ١٣٥) ائتوا بأقصى ما لديكم من فسق وتَعَدٍّ. و"المكانة"؛ التمكن من الشيء، ليست مشتقة فقط من المكان، بل من التمكن من المكان، كأن أصل معنى كلمة {اعملوا على مكانتكم}: اثبت قدر استطاعتك في مكانك وأنا أيضًا سأظل ثابتًا.

وللشيخ الشعراوي كلمة جميلة قالها في تفسير هذه الآية، يقول: من المعروف حسًا وحتى فطرةً عند الأطفال أن المكان الواحد أو الحيز الواحد لا يشغله شيئان، وضرب مثالًا للطفل الصغير عندما يأتي ليجلس على كرسي يجلس عليه شخص آخر، فمن الطبيعي أن يَشُد هذا الشخص ليجلس هو مكانه، فهو يعرف بَدهيًا أن المكان الواحد لا يشغله إلا واحد، لا يمكن أن يشغله شخصان معًا.. فكأن الصراع بين أهل الباطل وأهل الحق في مكان لن يشغله سوى أحدهما، لذلك يقول لهم: مهما ثبتم على

مكانكم أنا ثابت وأنا مَن سينتصر! وهذا هو أصل المعركة. و في ختام المعركة في سورة آل عمران يقول تعالى: {اصبروا} (آل عمران: ٢٠٠) فالمعركة تدور حول من الذي يصبر أكثر، {وصابروا} فعندما صبرت أنت؛ هو أيضًا صبر، فلا بد أن يَغلب صبرُك صبرَه.. {وصابروا}؛ صيغة مفاعلة من الصبر؛ أي أن الذي ينتصر هو من لديه صبر أكثر. وبعد أن صبرت وصابرت، وجدته هو أيضًا يُصابر، لذلك قمت بربط نفسك وقلت له: لن أمشي من هنا! {ورابطوا} تخبره أنك لن تتحرك من مكانك! {اصْبِرُوا وَصَابِرُوا} (آل عمران: ٢٠٠)، ليس هذا فقط بل أيضًا: {ورابطوا}. فهنا يقول لهم: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ} (الأنعام: ١٣٥) لم يقل سوف أعمل، بل جاءت الآية باسم الفاعل، جملة اسمية مؤكدة؛ لتدل على الاستمرار، فيقول لهم: أنا مستمر مهما استمررتم، ومهما كان معكم من أدوات، ومهما اجتمع الإنس والجن، ومهما فعل أكابر المجرمين، ومهما قالوا من شبهات؛ فأنا مستمر لنصرة دين الله عز وجل.

{إني عامل} (الأنعام: ١٣٥) ؛ أي لن يوقفني شيء أبدًا عن نصرة هذا الدين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (حتى تنفرد هذه السالفة)[١] ، أي؛ حتى تنقطع رقبتي، قالها النبي صلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو متجه إلى الحديبية، فهذا قرار قطعي لا رجعة فيه، فمهما أتوا باستعدادات وأدوات لن أتراجع أبدًا! فعندما يزيد العدو من استعداداته يجب أن تزيد أنت أيضًا، وأن تكون أشد ثباتًا!

لذلك قوم نوح {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} (هود: ٣٨)، فهم يزيدون من الأدوات التي تضغط نفسيًا على المؤمنين، فكان لا بد لسيدنا نوح أن يشدد عليهم الخطاب، فقال لهم {قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ} (هود: ٣٨،٣٩) فلما زادوا في الضغط النفسي، كان على سيدنا نوح أن يزيد ليحافظ على أهل الإيمان الذين معه؛ لأن الله –سبحانه– قال له: {أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ} (هود: ٣٦)، ولذلك كان لا بد أن يحافظ على من معه، فطالما زادوا هم في الخطاب، فعليك أن تزيد أنت أيضًا في الخطاب.

[١] يا ويح قريشٍ لقد أكلتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائرِ العربِ. فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني اللهُ عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ، فما تظن قريشٌ؟ فواللهِ لا أزال أجاهدُ على الذي بعثني اللهُ به حتى يظهرَه اللهُ أو تنفردُ هذه السالفةُ - يعني الموتَ. الألباني (ت ١٤٢٠)، فقه السيرة ٣٢٤ • صحيح وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية وقد أخرجه البخاري.

{قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (الأنعام: ١٣٥) أنت تقول له: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، وأيضًا تقرر: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (الأنعام: ١٣٥) ، الظالم لن يفلح، هذا أمر قطعي.

هذا شوط آخر من فسادهم، وفساد عقائدهم، وفساد أحكامهم التي وصلوا إليها بعيدًا عن الدين. فهناك أكثر من شوط في سورة الأنعام؛

الشوط الأول: يستمر إلى نهاية قصة سيدنا إبراهيم.. كان الصراع بين سيدنا محمد وقومه أنهم يريدون آية، والرد عليهم، وآيات الله المبثوثة في الآفاق،

وأن القرآن شهيد.. ثم جاء نموذج سيدنا إبراهيم ليعلمهم –سواء كان ناظرًا أو مناظرًا– أن الوصول إلى معرفة الله –عز وجل– يكون بأبسط الأشياء.

ثم بعد ذلك جاء الشوط الثاني عن {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} (الأنعام: ٩٥)، وبيان عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى...ثم جاء الكلام عن المشركين؛ وأنهم لا يريدون آية وينكرون القرآن فحسب؛ بل جاءوا أيضًا بتشريع بديل، وبدأ التركيز على قضية الحلال والحرام، والمنازعة في حق التشريع.

وقد جاء شوط قبل هذا أن المشركين يريدون أن يحولوا الحرام إلى حلال بشبهة، والحرام كان الميتة، فالآية: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (الأنعام: ١٢١)، تعد ختام الشوط الذي يتحدث عن أنهم يريدون تحويل الحرام إلى حلال.

ثم جاء شوط طويل لتأكيد بعض القواعد، والكلام عن اجتماع الإنس والجن، والسنن سواء في الدنيا أو الآخرة.

وبعد ذلك يأتي شوط آخر من محاولة تحويل الحلال إلى حرام وهذا أشد، كأن هناك تدرجًا، فهو يحاول أن يجعل الحرام حلالًا كما أراد أن يجعل الميتة حلالًا.. فقد ذكر الإمام الطبري وغيره من المفسرين آثارًا منها: "أن ناسًا من المشركين دخلُوا على رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت، من قَتَلها؟ فقال: اللهُ قتلها. قالوا: فتزعم أن ما قتلتَ أنت وأصحابُك حلالٌ، وما قتله الله حرام!

فأنزل الله: { وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} (الأنعام: ١٢١).

فالغرض من هذه الشبهة أنه يريد أن يُحوّل الحرام –الميتة– إلى حلال.

فمن المفهوم –وإن كان غير مقبول– أن يحاول الإنسان أن يجعل الحرام –كالاختلاط أو شرب الخمر– حلالًا، لكن أن يحاول الإنسان جعل الحلال حراما! لماذا؟ هذا هو حب التشريع، هذه هي المنازعة. وهذا شوط جديد في السورة؛ التدرج في الفجور.. فهذا الشوط يتحدث عن أنهم قد وصل بهم الفجور إلى أن يكون لهم حق السلطة التشريعية على الناس؛ ولن يوافقوا شهوات الناس بل سيضادون شهواتهم، وسيشرّعون لهم أشياء مصادمة لفطرتهم، فيجعلون الناس يقتلون أولادهم، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ} (الأنعام: ١٣٧).. أرأيت إلى أي حد يمكن أن تصل المنازعة في التشريع! وقد قلنا المرة السابقة في قوله تعالى: {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} (الأنعام: ١٢٨) أن الإنس يستمتع بالجن من خلال اكتساب أفكار شهوانية من الجن، فيسعد بذلك، أما الجن يستمتع بحب السيطرة على الإنس، فلحظة النشوة لدى الجن أنه حينما كان يدخل العرب وادٍ كانوا يقولون: "نعوذ بسيد هذا الوادي من الجن"[٢] فينتشي الجن. ولذلك لما تعثر الصحابي، وقال: "تعس الشيطان"، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقل ذلك، ولكن قل بسم الله، فإن قلت تعس الشيطان يتعاظم حتى يصير كالقصر، وإن قلت بسم الله يخنس)، فعندما تنسب

[٢] [عن خريم بن فاتك الأسدي:] خرَجتُ في بِغاءِ إِبلٍ لي، فأَصَبتُها بأبرَقَ العَزّافِ، فعقَلتُها وتوَسَّدتُ ذراعَ بَعيرٍ منها، وذلكَ حدثانَ خروجِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقلتُ: أعوذُ بكبيرِ هذا الوادي، أعوذُ بعظيمِ هذا الوادي. قال: وكذلكَ كانوا يصنَعونَ في الجاهليَّةِ، فإذا هاتِفٌ يهتِفُ بي: عُذْ باللهِ ذي الجلالِ، منزِلِ الحرامِ والحلالِ، ووحِّدِ اللهَ ولا تُبالِ، بما يقولُ الحيُّ مِن أهوالِ؛ إذ نذكُرُ اللهَ على الأميالِ، وفي سُهولِ الأرضِ والجبالِ، فكلُّ كَيدِ الجِنِّ في سِفالِ، إلّا التُّقى وصالحَ الأعمالِ. قال: فقلتُ: يا أيُّها الداعي، ما تخِيلُ، أرُشْدٌ عندَكَ أم تَضْليلُ، قال: فقال: هذا رسولُ اللهِ ذو الخيراتِ، جاء بياسينَ وحاميماتِ، وسُوَرٍ بعدُ مُفصَّلاتِ، محرِّماتٍ ومحلِّلاتِ، يأمُرُ بالصلاةِ والزكاةِ، ويزجُرُ الأقوامَ عن هَناتِ، قد كُنَّ في الأيامِ منكَراتِ. قلتُ: مَن أنتَ رحِمَكَ اللهُ؟ قال: أنا ملَكٌ بنُ ملَكٍ، بعَثَني رسولُ اللهِ ﷺ على جِنِّ أهلِ نَجْدٍ. قال: قلتُ: لو كان لي مَن يَكْفيني إبلي هذه، لأَتَيتُه حتى أؤمنَ به. قال: أنا أَكْفيكَها حتى أؤَدِّيَها إلى أهلِكَ سالمةً إنْ شاء اللهُ. قال: فاكتَفَلتُ بَعيرًا منها، ثمَّ أَتَيتُ المدينةَ، فأوافقُ الناسَ يومَ الجُمُعةِ وهم في الصلاةِ، فقلتُ: يَقْضونَ صلاتَهم ثمَّ أدخُلُ، فإنّي دائبٌ أُنيخُ راحلتي؛ إذ خرَجَ إلي أبو ذَرٍّ فقال لي: يقولُ لكَ رسولُ اللهِ ﷺ: ادخُلْ. قال: فقال لي حينَ رآني: ما فعَلَ الشَّيخُ الذي ضمِنَ لكَ أنْ يؤدِّيَ إبلَكَ إلى أهلِكَ سالمةً؟ أمَا إنَّه قد أدّاها إلى أهلِكَ سالمةً. قلتُ: رحِمَه اللهُ. فقال النبيُّ ﷺ: أجَلْ، رحِمَه اللهُ. قال: فقلتُ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ. وحسُنَ إسلامُه بعدَ ذلكَ.

ابن عساكر (ت ٥٧١)، تاريخ دمشق ٣٧٦/٥٢ • غريب

شيئًا للشيطان أو تتكلم عنه؛ يتضخم الشيطان ويتكبر، فهو يريد أن يشعر أنه عظيم، وهذا الكبر منعه من السجود لسيدنا آدم.

فهؤلاء -شركاء الشياطين وأولياؤهم- ينازعون الله -سبحانه وتعالى- في التشريع، يريدون أن يسيطروا على المجتمع، فلا يكتفون بفتح باب الشهوات أمام المجتمع، بل أيضًا يريدون أن يسري كلامهم على المجتمع، فما يقولون عليه حرامًا يصبح حرامًا، وحتى أقرب الشهوات للإنسان -الطعام- تدخلوا فيها، ومنعوا الناس من الأكل، وجعلوا الناس يقتلون أولادهم؛ ما هذه السفاهة! وهناك أثر مروي -على ما أظن عن ابن عباس وغيره- يقول: "إذا أردت أن تعلم سفاهة المشركين، فاقرأ ما بعد الآية ١٣٠ من سورة الأنعام"[٣].

إذًا؛ عندما يغيب الإنسان عن تشريع الله -عز وجل- يمكن أن يصل لتشريع أي شيء؛ أن يبيح الزنا طالما أنه برضا الطرفين، أو يبيح زواج المثليين، ويمكن أن يقوم بسجن الأب الذي يضرب ابنه من أجل الصلاة.

كل هذا لأن التشريعات الأرضية عندما تبتعد عن نور الوحي يمكن أن تصل في مصادمة الفطرة أبعد مما تتخيل!، وهذا هو أحد معاني قول -الله عز وجل- {لِيُرْدُوهُمْ} (الأنعام: ١٣٧)، وقول الله -عز وجل- {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} (الليل: ١١)، يردوهم: أي يسقطوهم، قال العلماء: السقوط هنا في الفطرة، وقيل: {لِيُرْدُوهُمْ} أي يسقطوهم في جهنم، وقيل: {لِيُرْدُوهُمْ} أي أنه يحوله لمسخ -والعياذ بالله-.

هذا الشوط من محاولة المنازعة في التشريع، ووجود هذا في سورة الأنعام مع أن سورة الأنعام في جزئها الأول الكلام كله عن الله سبحانه وتعالى وقدرته... كلام يرفع الإيمانيات.

فتجد بعض الأخوة يقول: أنا أحب الجزء الأول فقط من سورة الأنعام إنما الجزء الأخير من سورة الأنعام لا أجد فيه قلبي!... وهذا نوع من علمنة الدين، الموضوع ليس أن تجد قلبك، أن يكون الدين كله

[٣] [عن سعيد بن جبير:] إذا سَرَّكَ أنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فاقْرَأْ ما فَوْقَ الثَّلاثِينَ ومِئَةٍ في سُورَةِ الأنْعامِ، {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أوْلادَهُمْ سَفَهًا بغيرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٤٠] إلى قَوْلِهِ {قَدْ ضَلُّوا وما كانُوا مُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١٤٠].

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٥٢٤ • [صحيح]

روحانيات فقط ولا يوجد تشريع أو جهاد أو قتال أو عقيدة، هذا نوع من العلمنة، أنت تركت مساحة فارغة هذه المساحة الفارغة فتُستغل مباشرةً... يأتي من يملؤها بأفكاره وسياساته.

لذلك من أسباب علمنة الدين عند الناس وصول الدين مجزأً للناس؛ عدم كلام الدعاة في هذه المساحات فيتكلم غيرك فيها، أنت تركت أماكن فارغة، لم تتكلم في المعاملات المالية فغيرك يتكلم ويؤصل فيها، أنت لم تتكلم في العلاقات الاجتماعية فغيرك يتكلم ويؤصل فيها، أنت كان يجب أن تبني حدودًا هنا، لا يمر عليك أي كلام بغير فلترة وتنقية، هذا نوع من العلمنة أنك تريد أن تسمع فقط بعض الإيمانيات وبعض الروحانيات، أين بقية الدين؟! أين الجزء الآخر من الدين؟!

فربط سورة الأنعام كوحدة متكاملة، وأن الذي خلق هو الذي يُشرِّع وهو الذي {له الخلق والأمر} (الأعراف: ٥٤)، لذلك الآية {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} (الأنعام: ١٣٦) كان من الممكن أن يقول ربنا: "وجعلوا لله نصيبًا"، ولكن الله -عز وجل- قال بأن هذا الذي جعلوا لهم نصيبًا منه أنا الذي خلقته، فبما أن الله -عز وجل- هو الذي خلق فإذًا هو الذي يأمر وينهى فيه، لكن انظروا ماذا فعلوا؟ {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} (الأنعام من الآية: ١٣٦) كانوا يأتون بحرثهم وأنعامهم وزرعهم ويقسمونهم ويقولون: هذا لربنا، ويأخذون جزءًا من البذور والحبوب والحرث والأنعام ويقولون: هذا نخرجه لله وهذا للآلهة {وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا} (الأنعام من الآية: ١٣٦)، انظر إلى فكرهم!، أليسو مشركين؟ كان يمكن أن يخرجوها كلها للآلهة، لكن لا؛ لا بد أن يترك قَدْرًا لله، وهذه خطورة الخلط؛ أن يأتي بمادة موافقة للشريعة الإسلامية ومادة مضادة للشريعة الإسلامية، ويضعهم في دستور واحد.

كان وقت التتار اسمه "الياسق"، لا بد أن يأتي بشيء يخلط على الناس الأمر الشرعي بالأمر الشركي، ويضعهم مع بعضهم البعض فيصعب الفصل بينهم. لذلك قديمًا في مكة عندما أرادوا أن يضعوا إساف ونائلة (الأصنام)؛ فأين وضعوهم؟ وضعوهم فوق الصفا والمروة، هل ضاقت بهم مكة؟! هل الجزيرة العربية لم يعد فيها أماكن! لا؛ بل يضعها فوق الصفا والمروة فيختلط شيء شركي بشعيرة من شعائر الله، فالناس تقول هل نطوف أم لا نطوف؟ فيختلط على الناس الشرع بما ليس شرعًا، دائمًا يتعمد أن الخلط.

إذًا؛ أول ما فعلوا أنهم يقولون هذا لله؛ لذلك عندما قال الله هنا: {قالوا هَٰذَا لِلَّه} (الأنعام من الآية: ١٣٦) قال: {بزعمهم} (الأنعام من الآية: ١٣٦) قال العلماء: أصل الجملة "قالوا بزعمهم هذا لله وهذا لشركائنا"، أو الجملة "قالوا هذا لله وهذا لشركائنا بزعمهم"، أي أن الزعم إما يأتي في البداية أو يأتي في النهاية، لكن لماذا جاء الزعم بعد كلمة {لله}؟ لأن الذي قالوا بأنه تشريع ليس هو التشريع الكامل، حتى لو كان هذا لله فهو ليس خالصًا لله.

ما معنى ذلك؟ أي عندما يُذكر لك مثلًا حُكم قانوني ويقول لك: ما رأيك؛ هل هذا القانون شرعي أم غير شرعي؟ وتنظر في المادة الأولى فتجدها شرعية، لكن هذه المادة حتى تكون شرعية كاملة فلا بد لها من مادة أخرى تُكمِّلُها، لكن هذه المادة الثانية ليست موجودة، فهنا تقول على المادة الأولى بالرغم من أنها شرعية إلا أن هذا ليس الشرع.

مثال؛ وثيقة بنك يقول إنه يتعامل بالمعاملات الإسلامية، فعندما تُعرض عليك الوثيقة لتقول هل هذه الوثيقة شرعية أم غير شرعية؛ فتقرأ الوثيقة تجد البند الأول فيه عدم الغرر مع الناس، ثم التعامل وإعطاء الحقوق وغير ذلك من الأمور الشرعية، والبند الثاني يقر بأن هناك فوائد! ثم تُسأل عن رأيك ولكن لا يسألك بالطبع عن البند الثاني، فيقول لك هل البند الأول هذا شرعي أم غير شرعي؟ فتقول: لا، هو كان ينتظر أن تقول له: نعم، فتقول: لا، هذه هي {هذا لله بزعمهم} (الأنعام من الآية: ١٣٦) يجب النظر إلى الموضوع مكتملًا، هذا زعم منك أن هذا خالص لله لكن ليس هذا الذي يرضاه الله –عز وجل–، أيْ بالرغم من أنها لله إلا أن الله –عز وجل– قال: {هذا لله بزعمهم} (الأنعام من الآية: ١٣٦) وهذا الذي أشار إليه الشيخ رشيد رضا –رحمه الله– في المنار.

{ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا} (الأنعام من الآية: ١٣٦) هذه المصيبة الأولى؛ أنهم قسَّموا.

المصيبة الثانية؛ أنهم لم يكتفوا بالتقسيم فلم يعطوا الشيء كله لله،بل المصيبة الثانية أنهم حتى في الشرك أنذال وبخلاء، فماذا يفعلون؟ {فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ} (الأنعام من الآية: ١٣٦) ما معنى ذلك؟ فبعد أن يقسموا الشيء يقولون : هذا الشيء مثلًا لله، ما معنى لله؟ أي للفقراء والمساكين مثلا، {وهذا لشركائنا} أي أين ستذهب؟ يقولون: للسدنة القائمين على الآلهة، أي أنه في النهاية تدور لتعود لأكابر المجرمين مرة أخرى، هم الذين يخدعون الناس، فيتبرع الناس ولكن في النهاية تذهب للسدنة القائمين على الآلهة.

{ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا} (الأنعام من الآية: ١٣٦) يقولون لك لو جاءت الريح وحملت بعضًا مما عند الشركاء من الحبوب وذهبت بها عند القسم الثاني-الذي لله- فيقولون: لا؛ نحن نعيد هذا لمكانه، وإذا جاءت الريح من الاتجاه المعاكس ونقلت القليل من هناك وضعته عند آلهتهم فيقولون: اتركه، لا بأس... لا مشكلة.

يزرعون زرعًا فتراه يقول: هذه الزرعة لربنا وتلك الزرعة لشركائنا، لو هذه الزرعة أنتجت وتلك لم تنتج، يأخذون من هنا يضعونه هناك، ويقولون: حتى يكون هناك تساوٍ!، ولو أن هذه لم تنتج وتلك أنتجت يقول : لا، لن نضع هذه هنا، وعندما كانوا يُسألون لماذا يفعلون ذلك؟ في الآثار التي ذكرها الإمام الطبري عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيره، يقولون: الله غني، لا يحتاج إلى هذا وإنما آلهتنا فقراء.. إذًا ما داموا فقراء فلمَ تعبدونهم؟! أمر عجيب جدًّا؛ انظر إلى السفاهة.

لذلك قال الله -عز وجل- {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} (الانعام: ١٤٠) انظر السيطرة عندما تصل على المجتمعات يمكن أن تصل إلى أن تجعل المجتمع سفيهًا.

فالشاهد إذًا؛ أولًا: يُدخل في الدين ما ليس دينًا، ثانيًا: أنه لم يكتفِ بذلك فتجده منافحًا عن المواد الدستورية المخالفة للشريعة، ينافح ويدافع عن الحريات، حتى لو سُبَّ الصحابة أو السلف!، ويقول: هذه حرية!، وتأتي لأمر يخص الشريعة الإسلامية فيتجاهله.

{فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ} (الانعام: ١٣٦) تجده متمسكًا جدًّا بما يخص الشركاء ويزيد عليه لو نقص من نصيب الله، والعكس لو شيء يخص الشركاء أنتج والذي فعله لله لم تنتج يقول لك: لو كان الله يريد أن ينتجها لأنتجها، ألا تقولون أن الآلهة تتصرف! لماذا إذًا عندما لم تثمر هذه لم تقولوا لو كانت الآلهة تريد لأنتجت، يقول: لا الله غني وهؤلاء فقراء، نأخذ من هنا ونعطيهم، ثم هو أصلًا يأخذ من هنا ويعطي هنا وهم الذين يأخذونها في النهاية!!!

{فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ} (الأنعام: ١٣٦) أيا كان بالريح أو الماء كما ورد في روايات عدة {وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۖ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} (الأنعام من الآية: ١٣٦) ربنا يقول: حتى في شركهم ليسوا عادلين. أي؛ حتى عندما أشرك وقال إنه سيقسم إنتاجه نصفين، نصف للآلهة والآخر لله، أي هو مشرك وأيضًا مشرك سارق { سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}.

- إذًا أولا:-محاولة وضع الشيء الشرعي مع الشيء الوثني -الخلط بينهم- بأن يُصر أن يعمل شيئًا لله أمام الناس.
- ثانيا:-الاهتمام بالأمر الشركي أكثر من الاهتمام بالأمر الشرعي.
- ثالثًا:-إن الذي يستطيع أن يخدع الناس بهذه السفاهة، يستطيع أن يضغط على الناس ضغطًا اجتماعيًا، ما معنى أنه يستطيع أن يضغط على الناس ضغطًا اجتماعيًا؟

هذه هي كلمة {وكذلك} فالذي يستطيع أن يخدع الناس في الآية الأولى، يستطيع أن يخدع الناس في الآية الأخرى { وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ } (الأنعام من الآية: ١٣٧) تخيل ربنا يقول: إنهم يمكن أن يصلوا في السيطرة على العقول إلى أن يقنعوا المرء أن يقتل ابنه! و يكون قتل الابن هنا كما قالوا -فيما أذكر- على ثلاث صور؛ إما أن ينذر أن يذبح ابنه، كما يروى عن عبد المطلب أنه نذر أن يذبح ابنًا له، أو وأد البنات، أو خشية الإملاق؛ هذه الثلاثة صور قد وردت عن العرب، فمن الممكن للمرء أن يقتل ابنته خشية العار، وخشية أن تُسبى، أو يقتل ابنه سواء بنتًا أو ولدًا خشية إملاق { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ } (الاسراء: ٣١) أو السبب الثالث؛ أنه نذر من النذور يتقرب إلى الله بذبح ابنه.. وهذا شيء عجيب جدًا!!!

فربنا يقول إنهم يمكن أن يصلوا إلى أن يقوموا بضغط اجتماعي على الناس لدرجة أن الذي يقتل ابنته، لا يذهب لقتلها وهو يبكي، فلا يظل طوال الطريق يبكي إلى أن يصل إلى المقابر ثم يدفنها ويظل يبكي، لا، لا يحدث هذا! فهو يشعر قبل أن يدفنها بـ{ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ } (النحل: ٥٩) يمشي ووجهه في الأرض يخجل من الناس{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجهُهُۥ مُسوَدّا وَهُوَ كَظِيم * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلقَومِ...} (سورة النحل: ٥٨ – ٥٩)

تكون مشكلته في النظرة الاجتماعية {يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلقَومِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَم يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ} (النحل: ٥٩) بعضهم قال يمسكه سواء المولود أو وجهه، {أم يدسه في التراب} لا يهدأ نفسيًا ولا يشعر بالسعادة والانتصار إلا عندما يقتل ابنته!

انظر الضغوطات الاجتماعية والتقاليد تجعل الإنسان يُقدِم على فعل ماذا! انظر إلى هذا الضغط! وهذه خطورة أن الذي يتولى نشر الثقافة في المجتمع شيء سوى الوحي؛ غير القرآن والسنة.

من الممكن أن يصل المجتمع إلى أن ترى شابًا يمشي في الشارع، قميصه ضيق ومفتوح نصفه وبنطاله يسقط وهو سعيد! لولا أنك تعلم أنها موضة لكنت أشفقت عليه لفقره!

لذلك أحيانًا عندما ترى الموضات القديمة، الناس التي تشاهد الأفلام القديمة تراه أمرًا مضحكًا، مع أنه أصلًا غير ملتزم، فهو يمارس الموضة الجديدة ويشاهد الموضة القديمة ويظل يضحك ويظل يهزأ، وسيأتي الجيل الذي بعده يستهزأ به.. والسبب هو ضغط المجتمع وضغط الثقافة عليه، مما أدى إلى تغيير مصطلحاته بسبب ضغط الثقافة الاجتماعية عليه.

تجد المرأة ترتدى زِيًّا مخالف لفطرتها ويضايقها لكن تتحمل ذلك بسبب المجتمع ونظرة المجتمع! { يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ} (النحل من الآية ٥٩) فتخيل أن الضغط المجتمعي يمكن أن يصل بالإنسان ليس فقط أن يرتدي بطريقة معينة فتسخر منه، لا؛ الأمر أبعد من ذلك، قد يجعله يقتل ابنه أو ابنته.

هذا من التشريعات الباطلة التي قد تحدث في مجتمع، و يجب على الدعاة أن يقاوموها ويصلحوها عند الناس، يجب أن نصلح الثقافات الخاطئة المنتشرة عند الناس.

لذلك عندما كان هناك عادة واحدة فقط، عادية جدًا عند العرب، وهي أن الرجل لا يتزوج من طليقة ابنه بالتبني، يرى أنه يَحْرُم عليه أن يتزوجها، فكسْرُ هذه العادة عند العرب استدعى أن النبي –صلى الله عليه وسلم– بنفسه هو الذى يكسر هذا الأمر، لم يكن يكفي أن يجعل أحدًا من الصحابة يقوم بهذا، لا، النبي –صلى الله عليه وسلم– هو الذى يتزوج طليقة زيد {فَلَمّا قَضى زَيدٌ مِنها وَطَرًا زَوَّجناكَها لِكَي لا يَكونَ عَلَى المؤمِنينَ حَرَجٌ} (الأحزاب: ٣٧)، لكي نكسر هذا الحرج فيجب على الداعية أن يقوم بهذا الأمر بنفسه.. هناك أشياء راسخة في المجتمع لدرجة أنها تحتاج إلى جهاد دعوي لكي تنصلح مرة أخرى.

أحيانًا ثقافة بسيطة جدًا تنتشر في المجتمع وتصبح أكثر قداسة من الشرع نفسه، مثل مسألة الحذاء المقلوب عند الناس؛ الحذاء المقلوب عند الناس جريمة أن تتركه هكذا ولا تعيده إلى وضعه العادي!.. فقد تكتسب العادة قدسية عند الناس ويخترعون لها أسبابًا، ولكي تتغير تحتاج إلى جهاد مجتمعي.

إذًا؛ التشريعات الباطلة لا تأتي فقط من الشهوات، ولكن تأتي من التقاليد والأعراف أيضًا، يقول الله – عز وجل– {وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المشرِكينَ قَتلَ أَولادِهِم شُرَكاؤُهُم لِيُردوهُم} (الأنعام: ١٣٧) هذا انتكاس في الفطرة أن يذبح ابنته.

{وَلِيَلبِسوا عَلَيهِم دينَهُم} (الأنعام: ١٣٧) ومصطلح "اللبس" يتكرر معنا في سورة الأنعام.

بما أن سورة الأنعام هي أكثر السور التي جاءت بالحُجّة الواضحة، وكما قال ربنا في آخر السورة {فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ} (الأنعام من الآية: ١٤٩)، سورة الأنعام من أكثر السور التي ذكرت معاني النور والبصائر والهدى والبينات، وأن الأمر واضح، لأنهم كانوا يطلبون آية، وأكثر سورة جاء فيها كلمة (قُل)، فقد وردت أكثر من أربعين مرة.

بما أن هذه السورة كانت بهذا الوضوح، وأولها {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ} (الأنعام: ١) فمن البداية جعل الله فصلًا بين الظلام والنور في السورة، هذه السورة واضحة، فكان تكرار مصطلح [اللَبس] أنهم يريدون أن يلبسوا على الناس هذا الوضوح.

من أعجب ما قرأت ولم أجدها إلا للإمام القاسمي الذي قالها –وأظن أبو زهرة قالها أيضًا، وواضح أنه عندما يقول القاسمي وأبو زهرة نفس الشيء فالغالب يكون مصدرهما محمد عبده لأنهما يأخذان من هذا المصدر–، {وَلِيَلبِسوا عَلَيهِم دينَهُم} (الأنعام: ١٣٧) يقول: أقنعوهم بأن ذبح الولد سُنة إبراهيم في إسماعيل وأنهم هكذا يطبقون الشرع، أقنعوهم أن هذا لا غضاضة فيه، بل إنه من الدين، فهم يقومون بهذا تشبهًا بإبراهيم...انظر اللَبس على الناس، فهو لم يُزيّن له فقط، بل يُديِّن له؛ يجعل قتله لابنه دينًا، فقالوا إن الذي يَنذُر بذبح ابنه هذا يتشبه بسيدنا إبراهيم... انظر كيف يكون التلبيس على الناس في الدين!!!

هذا التزيين يُحدث انتكاسة في الفطرة {ليُردوهم} وأيضًا يُحدث لَبسًا على الناس لينسبوه إلى الله عزَّ وجل –عياذًا بالله– {وَلِيَلبِسوا عَلَيهِم} لذلك قال الله تعالى: {وَلِيَلبِسوا عَلَيهِم} يلبسوا ماذا؟ {دينَهُم} يريد أن يلبس عليهم في الدين، ينسبه إلى الدين. وهنا تأتي خطورة الأمر؛ أنه بعد أن يُحرِّم شيئًا ينسبه إلى الدين، {قُل أَرَأَيتُم ما أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِن رِزقٍ فَجَعَلتُم مِنهُ حَرامًا وَحَلالًا قُل آللَّهُ أَذِنَ لَكُم أَم عَلَى اللَّهِ تَفتَرونَ} (يونس: ٥٩)، فالخطورة لا تكون فقط في تحليل الحرام، إنما الخطورة في تحريم الحلال، أن تجعل الحلال حرامًا، وهذا أشد عند الله، لأن تحليل الحرام –وإن كان غير معذور فيه– كان بدافع

الشهوة، لكن أن تقول على الحلال أنه حرام؛ هذه منازعة في حق الله -عز وجل-، دون أي غرض غير المنازعة، فقط لفرض سيطرته على الناس.

فماذا يقول لهم؟ {هذِهِ أَنعامٌ وَحَرثٌ حِجرٌ لا يَطعَمُها إِلّا مَن نَشاءُ} (الأنعام من الآية: ١٣٨) أي؛ نحن فقط مَن يحدد مَن يأكل منها ومَن لا يأكل منها، نحن مَن يمتلك حق التقسيم المالي في المجتمع، نحن من نقول هذا ولا أحد غيرنا، هذه منازعة وهذه شهوة السيطرة، وهذا مثل إبليس -عياذًا بالله-.

{وَلِيَلبِسوا عَلَيهِم دينَهُم وَلَو شاءَ اللَّهُ ما فَعَلوهُ} (الأنعام من الآية: ١٣٧).

ونجد بث الطمأنينة مستمر خلال آيات السورة {فَذَرهُم وَما يَفتَرونَ}(الانعام من الآية: ١٣٧) أي أننا لا بد أن نوضح أن هذا افتراء وليس له علاقة بالدين {فَذَرهُم وَما يَفتَرونَ}.

{وَقالوا} استمرار في الفساد {وَقالوا هذِهِ أَنعامٌ وَحَرثٌ حِجرٌ} (الأنعام من الآية: ١٣٨) أي أنه حرام، {حِجر} تعني أن هناك حاجز ولا يقترب منها أحد، وذلك يعني أنهم أحيانًا يقومون بتقسيم الأشياء ويقولون هذا لشركائنا وهذه لله، وأحيانًا يأتون بأشياء ويقولون نحن مَن يحدِّد مَن يأكل منها ومَن لا يأكل {أَنعامٌ وَحَرثٌ حِجرٌ لا يَطعَمُها إِلّا مَن نَشاءُ بِزَعمِهِم}(الأنعام من الآية: ١٣٨).

هنا يقومون بتقسيم الأنعام إلى ثلاثة أقسام {وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (الأنعام: ١٣٨) لديك ثلاثة أنواع من الأنعام في هذه الآية هنا.

١. {أَنعامٌ وَحَرثٌ حِجرٌ لا يَطعَمُها...}(الأنعام من الآية: ١٣٨) أي أنه يوجد نوع من الأنعام محجورة على أُناس هم مَن يحددون مَن يأكل ومَن لا يأكل.
٢. وأنعام ممنوع أن يركب عليها أحد؛ حرام أن تركب عليها {وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا}(الأنعام من الآية: ١٣٨)،
٣. {وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا}(الأنعام من الآية: ١٣٨)، ماذا يعني أنهم لا يذكرون اسم الله عليها؟ أي أنهم أحيانًا عندما كانوا يذبحون كانوا يقولون: بسم الله، وأنعام أخرى لا يقولون عند ذبحها: بسم الله، لماذا؟ لأنها تذبح للآلهة وبالتالي لا يذكرون اسم الله عليها، فيقول الله {سَيَجزيهِم بِما كانوا يَفتَرونَ}(الأنعام من الآية: ١٣٨).

انظر كيف وصل التحكم حتى في الأطعمة، التي تعتبر أقرب شهوة إلى الإنسان، أول شهوة يُخلق الإنسان بها هي شهوة الطعام فنجد الطفل يبحث عن اللبن أن يتحكم ويُحرِّم على الناس هذه الشهوة فإن هذا هو قمة التحكم في البشر، أن يريد أن يُحرِّم عليهم أشياء أحلها الله –عز وجل–، وهذا يُعد قمة التحكم في التشريع –عياذًا بالله–، و قمة المنازعة لله جل وعلا.

{وَقالوا هذِهِ أَنعامٌ وَحَرثٌ حِجرٌ لا يَطعَمُها إِلّا مَن نَشاءُ بِزَعمِهِم}(الأنعام من الآية: ١٣٨) نحن مَن نقول: أن الذكور فقط يأكلونها أو نقول: هذه للآلهة، نحن مَن نحدد ذلك!

المجتمع مُطالَب بتقديم قُربان محدد يُدفع للآلهة ونحن مسؤولون عن توزيعها، ليس لكم شأن أين تذهب هذه النقود، فنحن من سنقوم بتوزيعها!!!

{ما جَعَلَ اللهُ مِن بَحيرَةٍ وَلا سائِبَةٍ} (المائدة: ١٠٣) قيل التي سُيبت؛ تُركت فيُمنع أن تُركب، فيخبرك أن هذه "ملك لله".

تخيل أن هناك شخصًا مشركًا لا يدين لله بدين الحق ويتبرع بناقة، هذا من الخلط، فليس كل الشرك شهوة فحسب؛ لذلك فإن تلقي الدين على أنه مجرد روحانيات فقط هو أمر خاطئ؛ لأن الشيطان له مداخل أخرى.

فمثلًا تحليل الميتة؛ هو يريد جعل الحرام حلالًا لكي يأكل منها، ولكن لماذا يجعل الحلال حرامًا؟! فالناقة قد أباح الله له أن يركبها فتجده يقول: هذه الناقة لله لا يركبها أحد! وناقة أخرى يقول: هذه سائبة، أي تمشي هكذا دون أن يتحكم فيها أحد لأنها خاصة للآلهة، حرام أن يركبها أحد، وبالتالي إذا رآك تركبها يقول: انزل، هذا حرام!

ولذلك أنت تتعجب كيف يكون متشددًا في أمر كهذا وفي نفس الوقت هو مشرك، هذا هو الخلط واللبس، فيُظن أنه صاحب دين، يُظن أنه على بقايا من دين ابراهيم، ولذلك إذا أخبرته أنه ليس له دين تجده يخبرك بأن لديه قواعد ولديه تشريعات يلتزم بها.

{إِلّا مَن نَشاءُ بِزَعمِهِم وَأَنعامٌ حُرِّمَت ظُهورُها وَأَنعامٌ لا يَذكُرونَ اسمَ اللَّهِ عَلَيهَا افتِراءً عَلَيهِ} (الأنعام من الآية: ١٣٨)–عياذًا بالله– أي يخبرك أن هناك أشياء لا يمكن أن تكون لله –والعياذ بالله– {سَيَجزيهِم بِما كانوا يَفتَرونَ }(الأنعام من الآية: ١٣٨).

{وَقالوا ما في بُطونِ هذِهِ الأَنعامِ خالِصَةٌ لِذُكورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزواجِنا} (الأنعام: ١٣٩) نجد هنا التوزيع الجاهلي؛ بتفضيل الرجال على الإناث في أشياء عجيبة! {وَقالوا ما في بُطونِ هذِهِ الأَنعامِ} اختلف العلماء في كلمة {ما في بطون} بعض العلماء قال: إن الأنعام أحيانًا يكون في بطنها جنين، فيقولون لو أن هذا الجنين وُلِد حيًا يكون خاصًا بالرجال فقط، أما إذا وُلِدَ ميتًا فمن الممكن أن نسمح للإناث أن يشاركونا فيه. {وَقالوا ما في بُطونِ هذِهِ الأَنعامِ خالِصَةٌ لِذُكورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزواجِنا وإن يكن ميتة} (الأنعام من الآية: ١٣٩) إذا كان هذا الجنين ميت {فهم} أي الذكور والإناث {فَهُم فيهِ شُرَكاءُ}(الأنعام من الآية: ١٣٩) تشعر كأنها قوانين حقيقية وأنهم فكروا فيها ونظموها وقاموا بصنعها، ولكنها في الحقيقة بعيدة عن الوحي، بعيدة عن الاستضاءة بالوحي؛ فتكون أشياء سفيهة!.

وكما نقول إن أي تشريع لا يستمد النور –ليس بالضرورة التفاصيل– لا يستمد النور العام من الوحي سيكون بهذه السفاهة... قد تجد فيه أشياء نافعة للناس دنيويًا –كما تجد عند الغرب– لكن تجد فيه الأشياء التي تمس العلاقات الاجتماعية والأسرة والأموال وعلاقة الإنسان بالله، هذه الأشياء تحديدًا تجد فيها تشويهًا ومسخًا للفطرة، هذه الأمور النور فيها من عند الله –عز وجل– فقط، و هذه الأمور تحديدًا هي التي وضع القرآن الأصول الخاصة بها، لكن في غيرها من الأمور الدنيوية (هم أعلم بأمور دنياهم)[٤] هذه أمور تأتي بالتقدم، لكن هناك أمور غيرها تأتي بأشياء سفيهة وانتكاسة للفطرة.

{وَإِن يَكُن مَيتَةً فَهُم فيهِ شُرَكاءُ سَيَجزيهِم وَصفَهُم إِنَّهُ حَكيمٌ عَليمٌ} (الانعام: ١٣٩) وصف الله –عز وجل– كل هذه الأشياء واختار منها أصعب أمر و هو القتل، فقال إن هذه سفاهة {قَد خَسِرَ الَّذينَ قَتَلوا أَولادَهُم سَفَهًا بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّموا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ} (الأنعام: ١٤٠) هنا ذكر الله لنا أمرين هما؛ انتكاس الفطرة بقتل الأولاد، وتحريم ما أحل الله... نجد الله ختم المشهد هنا {قَد خَسِرَ الَّذينَ قَتَلوا أَولادَهُم سَفَهًا بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّموا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتِراءً عَلَى اللَّهِ قَد ضَلّوا وَما كانوا مُهتَدينَ} (الأنعام: ١٤٠).

---

[٤] [عن أنس بن مالك:] أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ بقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فقالَ: لو لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بهِمْ فقالَ: ما لِنَخْلِكُمْ؟ قالوا: قُلْتَ كَذا وَكَذا، قالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْيَاكُمْ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٣٦٣ • [صحيح]

لنبدأ المرة القادمة من قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ} (الأنعام من الآية: ١٤١) أي الذي افتريتم عليه وادعيتم أنه فعل هذا، هو الذي كان له الخلق والأمر، وهو الذي أنشأ هذه الجنات فبالتالي هو الذي يقول تذهب لمن، هو الذي خلق هذه الأنعام {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ...} (الأنعام من الآية: ١٤٣) هو الذي يقول الحلال و الحرام فيها، أفتريتم على الله كذبًا؟!

إذًا اختار الله أمرين ملخصًا لتشريعاتهم الباطلة: *تحريم ما أحل الله، و قلنا أن تحريم الحلال أشد- من تحليل الحرام لأنه افتراء على الله ومنازعة وكذب بدون داعٍ إلا حب السيطرة والتحكم في الناس...*انتكاس الفطرة بقتل الأولاد { قَد خَسِرَ الَّذينَ قَتَلوا أَولادَهُم سَفَهًا} وهذه سفاهة {بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّموا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتِراءً عَلَى اللَّهِ قَد ضَلّوا وَما كانوا مُهتَدينَ} (الأنعام الآية: ١٤٠).

نكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.